الكاتب الجزائري أحمد دلباني: نعاني من الولادات غير المكتملة

على المفكر العربي تكسير أصنام المجتمع الأبوي التقليدي

كثيرة هي القضايا المنوطة بالمثقف العربي اليوم، وخاصة المفكرين، الذين وجدوا أنفسهم أمام أزمات عربية وعالمية متسارعة تستدعي خلفها قرونا كامنة من الإشكالات العالقة. "العرب" التقت المفكر والناقد الجزائري أحمد دلباني في حوار حول إشكالات الكتابة والمثقف والفكر العربي والآخر.

أبوبكر زمال
شاعر وإعلامي جزائري

"نعم. نشأت شاعرا في البداية" هكذا يبدأ لقاؤنا مع المفكر والفيلسوف أحمد دلباني، الذي وجد نفسه منجذبا، كما يقول، نحو "اللغة الشعرية والإيقاع وأرى فيهما طريقا يقود إلى لقاء مع ذاتي العميقة وهي تنشد الاتحاد بجوهر بعيد يومئ ولا يتجلى". ويضيف "كنت مسكونا، ولا أزال، بالبحث عن هارمونيا كونية تردم الهوة بين الذات والعالم من خلال إيقاع ينتشل الكينونة من سديم الأشياء وفوضاها. هذه ميتافيزيقا الشعر، إن جاز التعبير، وتلك ينابيعه".

سنونوة واحدة

تأثر دلباني بوالده الذي كان كما يقول محبا للغة العربية والشعر العربي في بعض ذراه العليا عنترة والمتنبي والمعري قديما، وشوقي وحافظ والشاعر القروي والشابي حديثا، ولكنه ما لبث أن شهد، منتصف الثمانينات، زلزالا بهيجا فتح عينيه ووجدانه على مغامرة اللغة والرؤيا، وهو يتعرف على بعض فتوحات الشعرية العربية الحديثة، ويقف على مقدار جسارة اللغة عند جيل الرواد وهم يتوسلون السبل إلى قول التجربة وإعادة خلق العالم في أفق التخييل وشفافية المعنى الذي يخترق كثافة اللحظة التاريخية.

> على كاهل المفكر العربي اليوم أن يناضل من أجل اكتساب الفلسفة حق المواطنة في المدينة العربية

"أنا من جيل التسعينات".. يحدد دلباني موقعه في خارطة الأجيال الثقافية، "أين ولدت، ثقافيا وإبداعيا، بعد انتفاضة الشباب الجزائري في أكتوبر 1988، وفي ظل ما عرفته الجزائر بعد ذلك من انفتاح سياسي وإعلامي. لقد استعادت الكتابة الشعرية حقوقها في المغامرة من جديد بعيدا عن أدبيات الالتزام في صورته المتصلبة أيام الأحادية الحزبية والثقافية. وأدى تحطم العكاز الأيديولوجي إلى سقوط الكثير من الأصنام الشعرية وإلى تحرير الشعر من العناصر غير الفنية وغير الجمالية".

كان محور اهتمام ذلك الجيل يرتكز على "كتابة قصيدة جديدة تسافر بعيدا في الذات وتحاول أن تتماهى مع لحظتها بمعزل عن كليشيهات الأيديولوجيا الجاهزة. لقد تم مع جيلي العبور من الصخب الأيديولوجي إلى الخيمياء الفنية لغويا، والانتباه إلى حضور الأشياء الناتئ بفعل ضربة شمس الوعي. كما أتيح للمدونة الصوفية أن تحظى عندنا باهتمام بالغ أيضا باعتبارها، أساسا، تجربة في الكتابة تستثمر طاقات اللغة وإبداعيتها من أجل قول المواجيد العميقة في محاولة التماهي مع المطلق".

ويشير دلباني إلى أنه في تلك الفترة تحديدا كان "مأخوذا أكثر بمحاولة فهم العالم وإيقاع العصر المتسارع بمعزل عن خطاطات الأيديولوجيات الآفلة. هذا ما دفع به إلى العكوف على القراءة والتأمل، لسنوات، في المنجز الفلسفي والفكري الذي ظل يرقب تحولات المعنى ويسائل مصير الحداثة ويحرر النظر إلى التاريخ من السرديات الخلاصية المستهلكة".

في سياق حديث آخر عن المثقف ودوره يحب المفكر دلباني، كما يقول، أن "ينطلق من ذلك التمييز التعليمي الممتع الذي أقامه سارتر بين رجل التقنية والمثقف من خلال مثال علماء الذرة الذين تجاوزوا اختصاصهم العلمي عندما نبهوا إلى مخاطر إنجازهم على الحياة البشرية والسلام العالمي. فالمثقف بهذا المعنى البسيط هو من يجد نفسه معنيا بالتدخل في الشأن العام منتصرا للحرية والعدالة والكرامة الإنسانية والحقيقة المتخلصة، قليلا أو كثيرا، من تأثيرات السلطة".

ولكن "ما يهم"، في كل ذلك، يقول، هو أنه "على المثقف المحافظة على الحد الأدنى من استقلاليته بإحداث تلك المسافة النقدية مع المؤسسة الرسمية التي تجتهد في تحويله إلى موظف من جهة أولى، ومع ذاته ومسبقاته الفكرية والأيديولوجية من جهة ثانية".

في ظل هذه النظرة نسأل دلباني هل أنتج الحراك العربي منذ 2011، ونظيره الجزائري اليوم أيضا، مثقفه؟ ليجيب "لم يحدث ذلك بعد، رغم أن حروب التحرير منذ الخمسينات، ومن بينها حرب التحرير الجزائرية بكل تأكيد، أسهمت بشكل فعال في إنتاج المثقف الما بعد كولونيالي الذي أعاد صياغة المعنى وطرح فهما للتاريخ من زاوية تفلت من المنطق الإمبراطوري المركزي للغرب الحديث. لقد ولد التفكيك، بمعنى ما، من الشقوق التي أصابت قلعة الفكر الغربي في العمق وفتحتها على تعدد العالم وكثرته. هذا ما يجعلنا نعتقد أن نمط المثقفين السائد اليوم لا يرقى إلى أن يجدد خطاب التعامل مع اللحظة التاريخية الراهنة ما دام لم يطأ بعد أرض المراجعة النقدية التي تقرأ فشل انتفاضاتنا وعدم إمكان خلخلة رواسب المجتمع الأبوي التقليدي. لقد قيل إن 'سنونوة واحدة لا تصنع الربيع'. فهل يمكن لسنونوة الحراك الشعبي أن تصنع ربيع الديمقراطية والحرية والخلاص من أزمنة الفساد والقهر؟ لماذا نعاني دوما من الولادات غير المكتملة؟".

الأنا والآخر

يشرح دلباني الحوار مع الآخر عبر النقد والحفر في هذه العلاقة فيقول "باعتبارنا عربا ومسلمين، فإننا نقصد بالآخر الغرب الأوروبي تحديدا. وأكاد أقول ليس لنا 'آخر' غيره على المستوى الحضاري منذ القديم مع استثناءات قليلة أبرزها، ربما، بلاد فارس كما هو معروف. فقد كانت اليونان القديمة رافدا ثقافيا عظيما ولد أهم مشكلاتنا الفكرية من خلال مقارعة العقل ومعطى الوحي. بينما مثل اللقاء الصدامي مع الغرب الحديث ميلاد مشكلاتنا التي عبرت عن التحديات المطروحة أمام شللنا التاريخي تجاه الحداثة".

ولكن هل الصورة التي يكونها العالم الغربي-الأوروبي عن الإنسان العربي- حقيقية؟ يرد المفكر "هي نتاج مخيال جبار ينهل من ذاكرة ذلك الصراع الماضي على احتكار رأس المال الرمزي للخلاص في حوض البحر المتوسط. وهنا تقفز إلى الذهن بسرعة ذكرى الحروب الصليبية والاستعمار الحديث وصولا إلى أشكال الهيمنة الراهنة على العالم العربي-الإسلامي. إن العربي-المسلم ظل يمثل دائما ذلك 'الآخر' الذي يحمل إرث المجابهة التنافسية مع الغرب. وهذا، طبعا، لا يكفي لتفسير الصورة المصدرة اليوم عن الإنسان المسلم في الإعلام الغربي والتي هي في أساس 'إسلاموفوبيا' متفاقمة حتى بين المثقفين والنخب السياسية. إذ ربما لم يكن استحضار التاريخ إلا ذريعة للاستثمار في الخوف من أجل أهداف سياسية تخدم اليمين المتطرف المنتعش بصورة لافتة والذي يعرف ربيعه الانتخابي عبر أرجاء أوروبا المنهكة بمشكلاتها وأزماتها".

إذن أين تكمن المشكلة الأساسية في علاقة الذات بالآخر؟ يقول "المشكلة لا تخرج، دائما، عن حضور جملة المسبقات الثقافية والعرقية والدينية المترسخة تاريخيا والمرتبطة بذاكرة الصراع معه. ونعتقد أن تنشيط هذه المسبقات لا يخدم إلا من يرى في الصراع الأبدي ترسيخا لمركزية الذات وتفوقها أو أحقيتها في فرض منطق الهيمنة والسيطرة. وعلى هذا نرى أن صنع صورة نمطية استهلاكية عن الآخر تجعله فزاعة في الفضاء العام لا يستند إلى الذاكرة التاريخية العالمة فحسب، وإنما أيضا إلى الأوضاع المعقدة التي تعيشها البلدان الحاضنة لتدفق المهاجرين وعدم قدرتها، في ظل الأزمة الاقتصادية الحالية، على تجديد خطاب الاندماج الإيجابي لأبناء الهجرة في ظل سيادة فلسفة ليبرالية ظلت تفتقر إلى إمكانية إدارة الشأن العام بالانفتاح على الأبعاد الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمواطنة، بعيدا عن الشكلانية الحقوقية الموروثة عن تنوير علا وجهه الشحوب".

يعتقد مفكرنا أنه يقع "على كاهل المفكر العربي اليوم أن يناضل من أجل اكتساب الفلسفة حق المواطنة في المدينة العربية التي لا تزال، في عمومها، تحمل صفات 'مدينة الله' لا 'مدينة الإنسان'. لا يمكن أبدا ان تزدهر الفلسفة، باعتبارها بحثا وتأسيسا لجدارة الحياة في أفق الاستقلالية والإبداع، إلا من خلال انبثاق 'الكوجيتو' العربي الذي طال انتظاره كما ذكرت آنفا. على العربي أن يتعلم 'فن الإقامة في العالم' كما يعبر علي حرب. دون ذلك لن يكون لنا وجود فاعل وسيكون العدم أليق بنا. نرسيس العربي لم يعد يتأمل وجهه في مرآة الأرض وإنما في السماء والأبدية بوصفهما بديلا عن السقوط غير الموفق في الزمنية والتاريخ".

سنونوة واحدة لا تصنع الربيع

هل الفلسفة منفصلة عن اللغة

لا وجود لفلسفة خارج اللغة، فلئن كانت الفلسفة منظومة رمزية، فإن جوهر تعبيرها لساني بالدرجة الأولى، أي أن عناصر الخطاب الفلسفي تُبنى حسب قواعد اللغة، ما يعني أن لها دلالات الاستعمال المعتاد، بقواعده وضوابطه.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

من المسلمات التي لا يحتاج المرء إلى تكوين فلسفي للبت فيها أنه يفكر في ما يهمّ بكتابته، ولو كان مطلبا إداريا أو رسالة غرامية، وأنه يتوسل في إنجاز ما يكتب باللغة كأداة للتبليغ عما يجول في ذهنه. ولكن تلك المسلمة البدَهية تغدو لدى الفلاسفة قضية يتجادلون بشأنها، ويتساءلون أيهما أسبق، الفكر أم اللغة، وهل هما متصلان أم منفصلان، أم هما متلازمان في جسد واحد ذي وجهين مثل ورقة أو قطعة نقدية؟

فريق منهم يرى أن الفكرة منفصلة عن اللغة، متقدمة عليها في الزمن وفي الماهية، بحجة أن الفكر ذاتيّ يخصّ شخصا بعينه، فيما اللغة موضوعية اجتماعية، كما يقول برغسون، وأنهما لا يتناسبان بدعوى أن اللغة تعجز في الغالب عن صياغة الفكرة. وفريق ثان، منهم هيغل، ودوسوسير، وجوليا كريستيفا، يذهب إلى القول إن الفكر واللغة ليسا سوى مظهرين لعملية نفسية واحدة، وإن العلاقة بينهما هي علاقة تلازم، وما اللغة سوى علامات تعبر عما يعتمل في الذهن من أفكار. وذلك ما لخصه فريدريخ ماكس موليز في قوله "إن العلاقة بين اللغة والفكر كالقطعة النقدية الواحدة، وجهها الفكر وقفاها اللغة، فإذا فسد أي منهما فسدت القطعة".

وأيا ما يكن الاختلاف، فالثابت ألا وجود لفلسفة دون تعبير لساني. صحيح أنها منظومة مفاهيم ذات طبيعة خاصة، ولكنها لا يمكن أن تعبر عن نفسها بغير اللغة، فهي ليست عَرْضا فُرجويًا، ولا ألبومَ صور، وإنما هي جملة أفكار نظرية تصاغ بواسطة اللغة. قد يحوي خطابها ألفاظا مولّدة (NÉOLOGISMES)، وقد يبيح لنفسه انتهاك البنية الصرفية لنحت مصطلح جديد لا علاقة له بالقاموس، وقد يمزج لفظين لصياغة لفظ مستحدث يعبر عن فكرة ما، ولكنه لا يتحول بحال إلى معادلات جبرية كما يفعل علماء الهندسة والرياضيات. قد تكون الفلسفة منظومة رمزية، أي أن المؤلفات التي تقدمها تتألف من مجموعة علامات، ولكن جوهر تعبيرها لساني بالدرجة الأولى، أي أن عناصر الخطاب الفلسفي تُبنى حسب قواعد اللغة، ما يعني أن لها دلالات الاستعمال المعتاد، بقواعده وضوابطه. ثم إن النص الفلسفي ليس مصطلحات كله، وخطابه يندرج ضمن الاستعمال اللغوي السائد، رغم ما يحتوي عليه أحيانا من غموض وتعقيد ولبس. ولكن مهما تعقدت العلامات الفلسفية، فإنها تظل رهينة للغة، لا تُفهم خارج سياقها.

تلك مسلمات ما كنا لنعود إليها لولا حدّة الردود التي قابل بها أساتذة الفلسفة في تونس كل من أشار إلى الهنات الكثيرة التي شابت مقالة تلميذة في امتحان البكالوريا (راجع مقالتنا "هل الكمال ممكن في امتحان الفلسفة" – العرب في 11. 07. 2019)، ومنهم أدباء وشعراء وأكاديميون عابوا على المصححين عدم اعتبار الجانب اللغوي في إسناد العدد الأقصى، فقد اتّهموا حينا بأنهم لا يزالون يعيشون في عصر سيبويه، وحينا آخر بأنهم يجهلون أسس الإصلاح وقواعده المضبوطة سلفا، وفي كل الحالات بكونهم دخلاء على الفلسفة يجادلون في ما ليس لهم منه نصيب كمن يجادل في الله بغير علم، وأن أساتذة الفلسفة لا يحتاجون إلى إجازة في اللغة، بدعوى أنهم يدرّسون الفكر لا الآداب، وكأنهم في حِلّ من احترام لغة الخطاب التي يستعملونها في دروسهم ويستعملها التلاميذ في مقالاتهم.

والذنب لا يلقى على التلميذة لأنها في طور التعلّم، ولأنها، شأن معظم المتعلمين في بلداننا، رَدّت البضاعة إلى أهلها، وإن بشيء من الاجتهاد، وأهلُها لا يتقنون العربية في الغالب، ومعارفهم تلقوها من مصادر باللغات الأجنبية، أو بترجمات رديئة في عمومها، فضلا عن انقطاعهم عن القراءة حال التخرج، إلا ما ندر، وهي حالة عامة يلتقي فيها السواد الأعظم من المدرسين في شتى المستويات. وحسبنا أن نعيد قراءة تدوينة الأستاذ المصحح، التي نشرناها كما هي في مقالتنا الآنفة الذكر، لندرك قلة إلمامه باللغة وقواعدها، فقد حوت اثني عشر خطأ من جملة ثلاث وثمانين كلمة، فضلا عن هلهلة الأسلوب وعدم احترام علامات الوقف التي قد يختل في غيابها المعنى أو يلتبس.

إن الذين يريدون عزل الفلسفة عن اللغة يتناسون أننا لا نتفلسف إلا داخل اللغة، وأن القضايا الفلسفية لا تتبدى إلا من خلال التدوين اللساني لفكرة أو ظاهرة أو معيش ينظر إليه كدلالة لمدلول. قد يختلف الفلاسفة من جهة الأسلوب والمصطلحات والمفاهيم، مثلما يختلفون في النظر إلى هذه المسألة أو تلك، ولكنهم جميعا، دون استثناء، لا يستغنون بأي حال من الأحوال عن اللغة السائدة. قد يخالفون الأدباء والشعراء من حيث الصياغة فيتجنبون البلاغة والمحسنات اللفظية، ولكنهم يحترمون قواعد اللغة التي بها يكتبون. وعندما نقرأ نصوص المفكرين الأجانب، قدامى ومحدثين، لا نعثر على خطأ من تلك الأخطاء التي تطفح بها النصوص العربية، إلا ما ندر. بل إن من المفكرين في الغرب من جمع بين الفكر والأدب، كروسو، وغوته، وسارتر، وكامو، وآلان باديو وغيرهم كثير، لأنهم يدركون أن اللغة أداة لكتابة الأفكار، مثلما هي أداة لوصف الحالات والتجارب النفسية والوجودية. فلا يمكن للفلسفة إذن أن تكون بمعزل عن اللغة، ولا أن تصاغ دون إلمام بقواعدها الأساسية التي لا يكون النص نصا إلا باحترام شروطها النحوية والصرفية والإملائية، وتبين فروقها اللغوية. يكفي أن يخطئ المرء مثلا في حرف جرّ حتى يتغير المعنى، فـ"يرغب في" هي عكس "يرغب عن"، و"دعا له" هي غير "دعا عليه"، و"طلب منه" لا تفيد معنى "طلب إليه".

لا وجود إذن للغة فلسفية، وإنما هو استعمال فلسفي للغة قد نجده حتى في الأدب والروايات؛ ولا وجود لأعمال فلسفية منفصلة عن صياغتها في تعبير محدد، بل لا وجود لأفكار علمية سابقة لتجليها الفعلي عبر اللغة. فالفلسفة تستعمل اللغة لاستكشاف مختلف مستويات الترميز التي يبتكرها الفكر الإنساني وتنظيمها، ولكنها لا تدوّن خطابها في منظومة رمزية شكلية مخصوصة، كالمعادلات الرياضية والفيزيائية والكيميائية، لا يفك شيفرتها إلا العارفون.

والخلاصة أن اللغة أداة الفكر الأساس، إذا اختلت اختل معها الفكر وانعدم التواصل والفهم.

> الفلسفة تستعمل اللغة ولكن لا وجود للغة فلسفية وإنما هو استعمال فلسفي للغة قد نجده حتى في الأدب

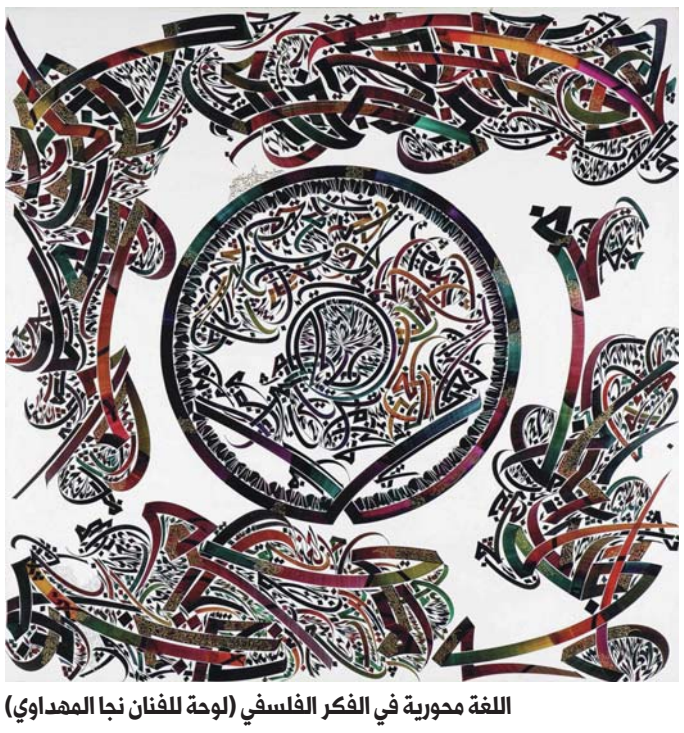

اللغة محورية في الفكر الفلسفي (لوحة للفنان نجا المهداوي)